الاحسان

للاستاذ احمد امين

لا أطيل على القارىء ، فانى أريد بالاحسان التصدق على الفقراء ومعونة الضعفاء والمرضى ، ولست أرى لفظا أدل على المعنى من الاحسان ، وان لم يرضه المتشددون فى الالفاظ

ربما كانت فضيلة الاحسان من أكثر الفضائل تقلبا مع الزمان ، وتغيرا فى افهام الناس ، فكم بين ما كان يفهمه حاتم الطائى من نحر الجزور وانهابها الناس ، وبين ما وضع من النظم الحديثة للاحسان من فروق ومباينات !

فنظام المعيشة من قديم ينتج غنيا مفرط الغنى ، وفقيرا مفرط الفقر ، كما ينتج :

أعمى وأعشى ثم ذا بصر وزرقاء اليمامه

فذوو السعادة يضحكو ن وغيرهم يبكى ندامه

ولم يخلق للآن نظام يعدم هذه الفروق أو يقللها من غير ان يستتبع خطرا أعظم ، وداء أعضل .

فاهتدى الناس لتلطيف هذه الفروق الى المناداة بالكرم والفخر به ، ولست أدرى أكان اول من نادى به الاغنياء اتقاء لخطر الفقراء ، ام الفقراء تعطيفا لقلوب الاغنياء

وأتت الاديان تدعو الى الاخوة ، وخاصة بين أهل الدين الواحد ، وتجعل من مستلزمات هذه الاخوة عطف الغنى على الفقير واشراكه فى جزء من ماله ، واستتبع ذلك وجود الاديار فى النصرانية والتكايا فى الاسلام

وكما أنتجت النظم معونة للفقراء وسدا لحاجات المعوزين أنتجت عند بعض الناس تراخيا فى العمل ، وميلا الى الكسل واتخاذ الاستجداء حرفة ، والتكدى صناعة .

وكثرت جيوش الفقراء فلم تكف النزعات الدينية لسد حاجاتهم ، فتدخلت الحكومات تحمل بعض العبء فنت المستشفيات وأنشأت الملاجىء وما الى ذلك

وأتت المدنية الحديثة فأخذت تقوم الفضائل من جديد ، واستخدمت العلم فى هذا التقويم كما استخدمته فى كل شىء ، وكان مما نظمته طرق الاحسان ، بل جاء قوم من الفلاسفة متأثرين بمذهب النشوء والارتقاء . وبنظرية الانتخاب الطبيعى وعلى رأسهم « هربرت سبنسر » يطبقون هذا على الاحسان ويرون أنه رذيلة لا فضيلة ، وأن العجزة ومن اليهم لا يستحقون هذه العناية ، انما العناية يجب أن تتجه الى الأقوياء والى خير العناصر ، ويجب أن ينتخب من المجتمع خيره وأقواه ، فتوجه اليه العناية وتأخذ بيده ، وبعد أجيال سيفنى الضعفاء ويبقى الاقوياء فيسعد مجتمعهم . نفعل فى ذلك ما نفعل بالوحوش والاشجار ، نهمل الذابل والضعيف فيفنى ، ونستولد القوى الجيد فيبقى الى آخر ما قالوا . ومن حسن الحظ لم تلق نظريته هو وأمثاله نجاحا ، فانها نظرية تقضى على خير ما فى الانسان من عاطفة نبيلة نحو الناس ، وكيف يقضى على العجزة والفقراء ونظام الحياة يخلق منهم كل يوم خلقا جديدا وجيشا كبيرا لو لم يعن به لاكتسح الأغنياء ، ولثار ثورة لا يعلم مداها الا الله .

انما كتب النجاح لقوم آخرين من الأدباء والعلماء لم يحاولوا أن يمنعوا الاحسان ، ولكن حاولوا أن ينظموه ، لم يشكوا فى قيمته ، ولكنهم آمنوا بضرر فرضاه ، واستعانوا بما وصل اليه العلم كما استعانوا بمنهاج البحث الجديد ، فدرسوا الفقر وأسبابه وطرق الاحسان وما يتلاقى منه مع أسباب الفقر وما لا يتلاقى ، ووفقوا فى ذلك الى حد كبير وان لم يصلوا الى الغاية ، وعلى ضوء هذه الدراسة سنت القوانين وأنشئت النظم ، وظلت القوانين تنظم والنظم تعدل ، حسب مقتضيات الاحوال الى اليوم .

فمن أشهر القوانين القانون الانجليزى للفقراء الذى وضع سنة ١٦٠١ ونقح سنة ١٨٣٤ والتزمت فيه الحكومة بمساعدة الفقراء والعاطلين .

ومن أشهر النظم المعروفة نظام « همبرج » الذى وضع للفقراء والعاطلين ، وهو يتلخص فى تأسيس مكتب رئيسى فى المدينة للنظر فى شؤون الفقراء وتنظيم الاحسان وتقسيم المدينة الى أقسام ، وتعيين مشرف على الفقراء فى كل قسم وظيفته اعانة العاطلين على وجود عمل لهم ، ودراسة أسباب الفقر فى الاسر ووصف العلاج لها ، وانشاء مدارس صناعية لاولاد الفقراء ومستشفيات لمرضاهم ، ويقضى بمنع الاحسان يداً بيد الى الفقراء ، انما يعطى الاحسان لهذه الجمعية ، فهى أدرى بطرق انفاقه — وكان من أثر هذا النظام قلة عدد الفقراء وتنظيم معيشتهم ، وقد أدخلت عليه تعديلات قليلة ثم عمم فى مدن كثيرة فى أوربا .

ونشأت فى أمريكا جمعيات على هذا النظام وسعت بعض أغراضها — من ذلك أنها رأت أن أكبر مساعدة ليس إعطاء المال للفقراء ولكن ايجاد العمل لهم ، كما جعلت من أهم أغراضها ترقية المعيشة الاجتماعية فى منازل الفقراء والعناية بحالتهم الصحية ، وبتعويدهم العادات الصالحة للعيش ، ووجهت أكبر همها الى العناية بأطفال الفقراء حتى لا ينشأوا كآبائهم ، فكان لدى الجمعيات سجل للفقراء والعاطلين فى كل حى ، ويجمل عن سبب فقر كل اسرة وحالتها وما بذل من العناية لها ، والاتجاه الذى اتجهوه فى معالجتها ، وبذلك أسس الاحسان على الاسس العلمية

لعل أهم ما حدث من الانقلاب فى تصور الاحسان انه كان يكفى فى عده فضيلة أن يخرج الانسان عن شىء من ماله أو جهده ابتغاء ثواب الله ، لا يبالى بعد ذلك أين وقع ماله : أعلى غنى وقع أم على فقير ، أكان فيه اصلاح للفقير أم افساد له؟ فيكفى أن يجود بقرش ليحسب له عند الله عشرة . أو مائة ، فجاءت الدعوة الحديثة تطلب أن ينظر فى الاحسان الى المحسن اليه لا الى المحسن ، فليس من العمل الصالح فى شىء أن تعطى حسبما اتفق ، بل يجب أن يكون عطاؤك لاصلاح الهيئة الاجتماعية التى أنت فيها ، ولا يكون ثوابا عند الله الا اذا نظر فيه هذا النظر ، ولا يعد فضيلة حتى يكون القرش الذى يعطى يقصد به رفع مستوى الأمة ، فاذا كان الاحسان يزيد حال الامة سوءا عد رذيلة لا فضيلة ، وعد من أتى به مجرما لا محسنا ، وبعبارة أخرى أن هذا النظر الحديث يتطلب أن يشعر المحسن بالتبعة أو المسئولية ، فمسئولية المحسن أن يعطى الفقراء وأن يتساءل عن إعطائه هل أفاد من أحسن اليه ؟ وهل أفاد الأمة بعمله أو لم يفد ؟

كان لهذا النظر نتائج لها قيمتها — منها تحريم الاحسان الفردى ، وهو ان تكون علاقة المحسن بالفقير علاقة مباشرة ، وانما يجب ان تتوسط فى ذلك الجمعيات والهيئات التى عرفت حالة الفقراء ودرست شؤونهم ، واهتدت عن طريق دراستها الى نوع مايصلح لهم ، فمن شاء الاحسان فعليه ان يتبرع لهذه الجمعيات وهى التى تتولى الانفاق — ومنها تحريم التسول فى الشوارع والطرق ، لأن المتسول لم يثبت للجمعيات صحة دعواه وعلة فقره . ان كان وليس التسول حرفة مشروعة ، ولكن اذا أثبت عدم صلاحيته للعمل وعجزه عن العيش وجب على الامة اعانته ، والجمعيات أقدر على تعرف هذا — وكان من مقتضى هذا النظر أيضا أن الهيئات التى وكل اليها هذا الأمر لا يصح ان تكتفى بأعطاء المال الى الفقراء ، بل يجب ان تعالج الأمر بشتى الوسائل حسب حالة كل فقير . فمن كان سبب فقره ان لا عمل له مع قدرته سعت له فى ايجاد عمل ، ومن كان سبب فقره مرضه عالجته ، ومن كان سبب فقره إدمان مخدرات أو سوء عادات نظرت فى وسائل اصلاحه ، كذلك اهم عمل تعمله أن ترعى أبناء الفقراء حتى لا يكونوا فقراء المستقبل ، فتنشىء لهم المدارس لا ليتعلموا فيها تعلما نظريا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، ولكن تعلما صناعيا يبعث فيهم روح الاعتماد على النفس ، ويفتح لهم السبل لتحصيل العيش — بهذا وأمثاله تعالج الفقر فى اوربا وأمريكا ، فان كان بعد ذلك عاطلون لم يكن سبب عطلهم راجعا اليهم ، وانما يعود الى نظام العمل والعمال وسوء الحالة العامة ، وجب ان تضمن الحكومات لهم ما يقيم أودهم حتى يعودوا الى عملهم .

ونحن اذا نظرنا — فى ضوء هذه النظريات وكيف طبقت — الى حالة الشرق وجدنا عجبا ، وجدناه لايزال على حالته الاولية ، سواء فى ذلك أغراض المحسنين أو تطبيق الاحسان .

لدى الشرق أموال كثيرة تبرع بها أهلها للخير ، لدينا أموال الاوقاف الخيرية ، ولدينا أموال النذور ، ولدينا تبرعات المحسنين ، الى كثير من أمثال ذلك ، ولكن أكثرها لايقع موقعا حسنا عند الله وعند الأمة ، وكأنه يصب فى البحر صبا أو يدفن فى الارض دفنا ، على أن المال الذى يدفن أو يلقى فى البحر ليس له من الضرر أكثر من فقده ، ولكن ضرر الانفاق على غير مستحق يزيد الامم بلاء والحال سوءا

وأهم ما استوجب هذه الحالة الاسيفة فى نظرى شيئان — أولها — احترام ارادة الواقف والمتبرع . فالفقهاء يرون أن شرط الواقف كنص الشارع ، والواقف لايعلم تطور الامة ولا مطالبها ولا حاجاتها التى تختلف باختلاف الزمان — قد كان كثير من الواقفين لايفهمون من وجوه البر الا الوقف على الحرمين والمساجد والتكايا والتصدق بالخبز على المقابر ، فأصبح الناس اليوم يفهمون أن من وجوه البر كذلك انشاء المستشفيات والمدارس والملاجىء ، وسيفهمون قريبا أن من وجوه البر اعانة جمعيات التأليف واعانة الفلاحين ليحصلوا على الماء النقى ، وليستضيئوا بالنور الكهربائى ، وسيجد غير ذلك من ضروب الخير ، وسيرون أن الوقف على مسجد اذا كان المسجد قد وُقف عليه من قبل مايكفيه ليس وجها من وجوه الخير ، وسيرون ان أموال النذور تلقى فى صناديق الاضرحة ليست تنفق على المعوزين والمحتاجين ، فليس التبرع بها احسانا

كان الواجب من عهد بعيد أن تحترم ارادة الواقف والمتبرع فى رغبته فى الخير فقط ، ولكنا لا نحترمها فى وجوه الخير التى يراها هو اذا رأينا أنها ضارة أو رأينا أن الامة أحوج الى الصرف فى وجوه أخرى — رحم الله حسن باشا عاصم ، فقد كان له موقف فى ذلك من أبدع المواقف — تبرع حسن ببناء مدرسة ، ووقف عليها الاوقاف التى تلزمها ، وأتبعها للجمعية الخيرية الاسلامية ، وكان حسن عاصم مديراً للمدارس ثم أراد الواقف أن يدخل ابنه فى المدرسة ، وكانت سنه تزيد على السن المقرر تشهوراً ، فأبى عليه ذلك وقال : انه تبرع بمدرسة فله الشكر ، ووقف عليها أوقافا فله من الله الاجر ، ولكنه يريد أن يبطل قوانيننا فليس له فى ذلك حق .

قد يكون من المعقول أن نقبل ارادة الواقف فى أوقافه الاهلية . أما الخيرية فيجب أن تخضع كل الخضوع لمصلحة الامة . لا أظن الواقفين اذا بعثوا من قبورهم ورأوا تطورات الامم الا مؤيدينا فى رأينا وراجعين عن رأيهم .

والامر الثانى وهو متصل بالاول ، ان اموال الخير تصرف حسبما اتفق لا خضوعا لدراسة اجتماعية ولا تحريا لوجه الانفاق ولا للمنفق عليهم ، فكثيراً ما يحرم البائس المحتاج ويعطى الغنى المبذر ، وكثيرا ما يحرم العائل لا يجد قوته وعياله ، ويعطى المدمن ينفقها فى كيوفه

ان فوضى الاحسان فى الشرق سبب من اسباب شقائه ، ولو نظمت لكانت من أكبر العوامل فى نهوضه وصلاحه

لا أمل فى هذا الاصلاح حتى ينشط رجال الامة وشبانها للخدمة العامة ، وان يمتلئوا عقيدة بضرورة المساهمة فى الاحسان بالمال وبالنشاط ، وأن يطالبوا مطالبة حارة بتنظيم الاحسان حتى يؤدى غرضه على أكمل وجه مستطاع ، اننا لرأينا البؤس فى الامة يتضاءل الى حد كبير ، ويحل محله كثير من الرخاء ، ولرأينا المال — الذى يضيع فى الشرق سدى — وقد أصبح دعامة للاصلاح ، وسببا من أكبر أسباب النهضة الحديثة .

احمد أمين